القبلية والطائفية في الخليج

تتضارب الآراء حول كون القبليّة والدينية في الخليج العربي ظاهرة صحيّة أمْ أنّها تعد مُشْكِلة يجب أن تخضع لمشروع تفتيت دقيق ومُتابع.

ولكي نستطيع الخوض في هذه المسألة يجب أن نفهم أن التكتّل يمكن أن ينشأ على تكتّل آخر سابق على شرط أن يحتوي مسار التكتّل الثاني مسار التكتّل الأوّل.. إنّ القبول بمبدإ الأممية الإسلامية ليس معناه التّخلّي عن مبدإ "الأممية القومية"، لكنّ الأممية الإسلامية لا يمكن أن تنجح إلاّ إذا استطاعت أن تكون بارزة ومقدّمة على الأممية القومية، وآنذاك يمكن إدخال أمميات قومية عدة في إطار الأممية الإسلامية، إنّ معنى هذا شبيه بما هو معروف في الوراثة باسم "الصفات البارزة" و"الكامنة" والكامنة لا تعني سوى الاختفاء لكنّها باقية ويمكن أن تظهر بعد قرون تماماً كما ظهرت القومية على الدينية في المشروع العربي بعد قرون من النهاية الفعلية لخلافة الإسلامية.

إن اللون الأزرق لعيني أحد الوالدين يختفي كصفة عند الإبن الذي يكون لون عينيه أسوداً، لكنّ هذا اللون الأزرق يبقى متوارثاً

ومتناقلاً جيلاً عن جيل وقد يظهر في النّسل بعد ذلك بقرون، تماماً كما يظهر لعائلة بيضاء طفل أسود البشرة، إنّ القضية إذن قضية هيمنة وبروز، أما التكينن أو الانتساب فقد يكون متعدّداً، فقد يكون الإنسان مسلماً وعربياً، ومنتميّاً إلى تكتل اقتصادي مَا، ورابطة رياضية أو ثقافية مَا، لكنَّ شعاره هو التكينن الإسلامي فهو لذلك يخضع قوميته، واقتصاديته، وثقافيته وكلّ متعلّقاته الأخرى لهذا الشّعار.

أمّا إذا بدأت طائفيته أو قوميته أو اقتصاديته تبرز فإن ذلك يكون على حساب ولائه الديني الأممي. لذلك نلاحظ أن الأمة العربية والإسلامية اليوم، أمتان لا أمة واحدة، وذلك بحسب الأولوية الولائية.

إنّ هذا الكلام مهمّ كثيراً لبيان زيف الذين يتحدثون عن وجوب إيجاد مشروع خليجي لتفتيت الدينية والقبليّة وإرجاع الإنسان إلى صيغته البسيطة، صيغ الخلية المعزولة عن الارتباط العضوي بالجسم. ولعلّي هنا أسوق كلاماً من بحث لي سابق في «المجتمع الخليجي والصراع بين الهوية وثقافة العولمة» أبيّن من خلاله معنى عزل الفرد عن قبيلته وإرجاعه إلى الصيغة البسيطة «الفردانية».

يتعرّض مجتمع الخليج لما تتعرّض له جميع مجتمعات العالم إلى

الهجمة الشّرسة "للأنسنة الثقافية" مع ما يعنيه ذلك من طمس للثقافة الذاتية..

وقد كانت التناقضات المرسومة على حافتي زمنين مختلفين مدعاة إلى التخوّف على الثقافة العربية الإسلاميّة في هذه المنطقة، فقد أدّى اكتشاف الموارد النفطية الهائلة في الخليج إلى قفزة "مجتمعية" لمواكبة الوضع الاقتصادي الجديد، وحدثت النقلة السّريعة من "البداوة إلى المدنية" ومن "الرّعي إلى التّصنيع" حسب تعبير بعضهم والواقع أنّ النظرة الاجتماعية الصحيحة تقتضي وضع الرّعي في مواجهة المدنية، لكون عملية التمدّن الطبيعية تمرّ عند الكثير من عل_bc_ير من عل_١٣ع من الرحلة الرّعوية إلى المرحلة المدنية مروراً بمرحلة "الزّراعة"، لذلك يعتبر بعضهم حرق مرحلة "الزراعة" وتخطّيها بالقفز عليها يجعل "المدنية" غير طبيعيّة (مشوّهة) ويمكن بالتأمّل فيها إدراك نقاط ضعفها ببقايا "المرحلة الرّعوية" ورغم كل هذا تبقى المسألة خاضعة لعنصر الزّمن، والملاحظ الآن أنّ احتكاك أو الانفتاح الخليجي على الغرب، ولو نسبيّاً قد جَعل شرائح كثيرة من المجتمع تتجاوز العقدة التي عقدها هذا الطرح السّالف الذكر.

إنّ هذا الانفتاح على الغرب قد حقق بالفعل ردم الهوة والفجوة الحضارية، لكنّه جعل المجتمع الخليجي يتعرّض لهزّات تستهدف جانب

الهوية، والثقافة الذاتية عنده..

إنّ «أنسنة الثقافة» فكرة وليدة للعولمة الشاملة وهي تعني إيجاد ثقافة عالمية تراعي في الإنسان إنسانيته فقط، أمّا غير الإنسانية من أمور التمزق الاجتماعي العالمي مثل الدين، والجنس، واللّغة، والوطن، فأمور مطلوب ضمورها واختفاؤها في الطّرح الثقافي العالمي الجديد، وحينما يتحدّث وغيره عن عدم خضوع الإنسان للإرهاب، فإنّه يعني بالإرهاب «الاغتصاب» الدّيني، والثقافي، اغتصاب الهوية..

إنّ الفسيفساء الطبيعية للعالم تخضع لعناصر ظاهرة وأخرى كامنة تماماً كما هو الشأن بالنسبة للصّفات في عالم الوراثة «Heridite» والعصبة الواحدة بالنظر إلى عنصر ما ظاهر قد تكون قائمة على عدّة عناصر أخرى كامنة ومختفية لصالح الدّين، إذ قد تظهر العصبة الدينية موحّدة، لكنّها قد تكون عصباً عدّة من ناحية اللّغة أو الجنس، لكن تعدّد ألسنتها أو أجناسها قد اختفى في ظلّ قوامة الدّين، لهذا يجب أن يُعلم أنّ العالم يأخذ أشكالاً عدّة للاعتصاب، وهي أشكال قائمة في ظهورها على سقوط ما قبلها، أو على ردّة فعل مواجهة له، فالاغتصاب الديني قد يظهر ردة فعل على الاغتصاب الجنسي، والاغتصاب الجنسي قد يظهر ردة فعل على أنقاض الاغتصاب

السياسي.

إنّ الألوان التي تبرز تباين الأمم والجماعات والطوائف في خريطة العالم لا يمكن أن تكون ثابتة، فالاتحاد السوفياتي كان عصبة واسعة، بلون واحد وبهيمنة عنصر واحد هو العنصر "السياسي" وأمّا الآن فهناك ألوان كثيرة تصبغ المساحة السوفياتية، ألوان متناقضة فيما بينها في بعض الأحيان كما هو الحال بين روسيا والشيشان وكما الاتحاد السوفياتي، فإنّ كل منطقة ملونة واقعاً بلون ما هي مشروع أو عرضة لألوان أخرى بفعل الانفجارات والرجوع إلى الذات والمطالبات الداخلية، بالاستقلال الذاتي المبني على المطلب الثقافي أو الثقافي أو العرقي إنّني حين أتحدّث عن منطقة البلقان مثلاً فإنني أستطيع أن أذكر ألواناً عدة: مونتنيغرو "الجبل الأسود"، كوسوفا ــ ألبانيا، يوغسلافيا. كراوتيا.. لكنني حين أمعن في آفاق المستقبل لا أرى سوى لونين "البانيا العظمى" و"الإمبراطورية الصّربية".

إنّ انفجار الكيانات ومعاودة تموقع أجزائها وفق طرح جديد سياسي، أو ديني، أو اقتصادي مصلحي، أو جنسي.... كل ذلك يجعل الكيانات البشرية رمالاً متحرّكة..

كما تدلّنا الملاحظة إلى أنّ الظاهرة البشرية تخضع في "تكيننها" إلى الشكل الحلزوني، فكلّما اكتملت دائرة توجّهُ مَا عادَ هذا

الاكتمال متراجعاً إلى نقطة الصّفر لتُعيد الأمة أو الجماعة الظهور بهيمنة وقوامة عنصر جديد يصبغ وثبتها، من القومية إلى الدينية إلى الإقليمية، وهكذا.. والأمم في هذا كالأشخاص لها مراحل صِبَى، وشباب، وكهولة وشيخوخة.. ونهاية دورتها هذه هي نقطة المركز في الشكل الحلزوني.

ومادام هذا التباين الموجود والتباين الآخر المتوقع أو «المتأهّب» للوجود أو «الممكن الوجود» طبيعة للعالم لكونه من طبيعة البشري كخلية بسيطة لجسم الأمّة فإنّ «التّدافع» الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: {ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً} [الحج].

وقد عبّر بعض الباحثين والمتأمّلين في الظواهر البشرية من علماء الاجتماع عن هذا التّدافع بصراع الحضارات وطرح البعض الآخر من دعاة الحوار مشاريع «حوار الحضارات» و«التثاقف» و«تقارب الأديان» لامتصاص حدّة هذا الصّراع المذكور..

وفي مقابل ذلك ظهرت العولمة طرحاً يرمي إلى إزالة والقضاء على كلّ ما من شأنه التسبّب في هذا التدافع والصّراع من عصبية دينية أو جنسيّة أو.. أو.. ولجأت المراكز التنظيرية لهذا المشروع إلى استصدار ومن ثمّ فرض بعض التقنينات الدّولية التي تفرض على

الجميع التحاكم إليها واحترامها، كما وضعت "فتاوى قانونية دولية" أخرى تسمح وتجيز استعمال القوة العسكرية، أو الحصار الاقتصادي، أو الحظر الجويّ أو غير ذلك من أساليب الزّجر والعقوبة والتعزير للمخالف..

وترمي العولمة وفق هذا الأسلوب والطّرح إلى القضاء على أسباب التفرّق بين الامم والجماعات، ورفع شعار "الأخوية العالمية" كما وردت في الكلمة التي كرّستها كليربوث لوس لمؤلّف وندل ويلكي "عالم واحد، "الكونيّة"[١٠] وطبعاً فلا يوجد هناك عنصر يجتمع فيه سكان الكوكب جميعاً سوى عنصر "الإنسانية" ولذا يتم التركيز عليه "كلّكم لآدم وآدم من تراب". وبدأ الحديث عند الكثيرين عن بداية سقوط "الأمة ــ الدولة" لصالح الكونية، ليس وفق الطّرح الفلسفي والسياسي المجرّد القديم ولكن وفق الطّرح الاقتصادي و"ظهر جيل جديد من الكونيين" الذين شنوا هجوماً على "الأمة ــ الدولة" أكثر جذرية بكثير من أيّ شيء اقترحه "اتّحاديو العالم" أو المتحمّسون للأمم المتّحدة، أو حواريون آخرون لـ "الدولية ذات الرّأس الصّوفي" الذين كانوا تقليدياً يثيرون الفزع في قاعات الاجتماعات ونوادي الرّيف»[١١]. ولم يكن عند واضع "الإسبرانتو" لجمع العالم على لسان واحد من دواعي النجاح ما يوجد اليوم عند الذين استطاعوا باسم التكنولوجيا ومواكبة الأحداث والعلوم

والابتكارات فرض تعلّم الإنجليزية على العالم برمّته.

كما لم يكن عند دعاة الوحدة الشعاراتية ومسقطي الحدود ما لأصحاب الشركات العابرة القوميات اليوم من وجاهة واقعية للطرح الوحدوي. إنّ الإطاحة بالثقافة الذّاتية للجماعات البشرية لتوحيدها كلّها في ثقافة إنسانية هو الذي كان سبباً قويّاً ومبرمجاً في حرب قامت منذ سنوات على مسمّى الأدب الإسلامي أو الأدب الرّسالي عموماً، لكون هذا الأدب سيكون مصبوغاً بصبغة توجد له نقيض في ردّة فعل الآخر صاحب الثقافة الأخرى. وهكذا تجلّت الدعوة العالمية في إطار العولمة إلى ثقافة دون حدود تصلح للجميع ويصلح لها الجميع..

إنّ تفتيت الكيان إذن يولّد مجتمعاً شكلياً محدوداً لكنه ليس مترابطاً، إنّ تسمية مجموعة من البشر الذين لا تربط الواحد منهم بالآخر صلة، سميتهم باسم معيّن ورفع شعار موحّد فوق رؤوسهم هو في الحقيقة شبيه عندي بنزلاء زنازن فردية لا يجمعهم سوى الحيّز «السجن» ولذا فهم يجتمعون في كونهم جميعاً «مسجونين»، وهكذا قد يجتمع مائة مليون في كونهم شعباً فلانياً دون أن تكون بينهم روابط داخلية تقوي هذا الرّباط العام «كونهم شعباً».

أمّا المجتمع المترابط داخلياً بروابط بين أفراده فإنّه لا يحتاج إلى

رباط عام يؤطّرهم، وحينذاك فحين نسمّيهم بالقبيلة مثلاً فنحن لا نقصد رباطاً عامّاً يكيننهم، بل روابط خاصة تجمع بين كل فرد وآخر.

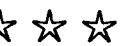

obeikandl.com